أشعار الفارس المريض

أزيح الستار فى أواخر شهر مايو الماضى عن النصب التذكارى الذى أقيم فى كنيسة وستمنستر تخليداً لذكرى شاعر استراليا القومى ادم لندساى جوردون بمناسبة مرور مائة عام على مولده بحضور دوق أوف يورك ورئيس أساقفة لندن .

والنصب المذكور عبارة عن تمثال نصفى من صنع المثالة الشهيرة هلتون يونج ، وقد كان لأهل استراليا السبق فى تقديمه وكان اغتباط انجلترا عظيماً بهذه الهدية وإن كان النقدة أصبحوا يمقتون فكرة اقامة تماثيل للشعراء فى الكنائس والمتاحف ويعدّون ان هذا ليس دليل العبقرية أو النبوغ .

ولكن تمثال الشاعر جوردون لا يمكن أن نطبق عليه هذه النظرية ، فشعره — كما يصفه رئيس الاساقفة — « يبعث فى النفس نشوة ، وتشعّ من جوانبه روحانية وميضة » .

وجوردون انجليزى الأصل، وقد وُلد فى جزيرة فايال والتحق فى صباه بمدرسة ولوتش الحربية ، غير أنه كان مشاكساً مغرماً بالفروسية وسباق الجياد والملاكمة وكافة أنواع المخاطرات ، فلم ينجح فى المدرسة وأرسله أبوه وهو فى العشرين من عمره الى استراليا مزوّداً بكتاب توصية الى الحاكم العام ، غير أن جوردون مزق الكتاب عقب وصوله ، واشترك فى سباق الجياد والملاكمة ثم التحق بخدمة البوليس السوارى وكان شجاعاً مقداماً لا يضحك الا ساعة الخطر .فأحبه الاستراليون وأخذ ينظم الشعر، وكان نظمه يدل على أنه رجل منصرف الى العمل أكثر منه الى حياة التأمل أو العزلة شأن غيره من الشعراء ، ووصفه أحد النقدة بأنه الشاعر الهابط اليهم من السماء !

وتوفى والده بعد بضعة أعوام فورث عنه ثروة طائلة وأخذ ينظم حياته البيتية

فتزوج فتاة كان يحبها ، غير أنه مرض مرضاً فجائياً منعه من مزاولة أى عمل فانقطع فى هذه الفترة الى الشعر ونشر ديوانه الأول والأخير «الفارس المريض» . وكانت ثقافة الاستراليين محدودة الى ذلك الوقت فلم يستطيعوا أن يتفهموا أشعاره ولم يبع من الديوان غير مائة نسخة فى خلال ستة شهور !

ودبّ اليأس الى قلب الشاعر وأظلم الوجود فى ناظريه ، وزاد فى مرضه أن توفيت طفلته الوحيدة . وفى ذات ليلة هرب من فراشه حيث ذهب الى غابة قريبة وأطلق الرصاص على نفسه منتحراً ، وشيعت جنازته ولم يشترك فيها غير بضعة أشخاص من أصدقائه .

لقد صدق جبران خليل جبران يوم أن قال : موتُ الشاعر حياته !

فان جثمان جوردون ما كاد يتوارى فى التراب حتى هبّ النقدة يستعرضون « أشعار الفارس المريض » فى ضوء التمحيص فساءهم ان هذا الشاعر العظيم كان مغبوناً فى حياته ، لم يفهمه جيله لأنه سبقه بمراحل وان نظمه يقوم على الشعور الحادّ بجمال الطبيعة والتغنى بقومية استراليا .

والاستراليون يكرمون ذكراه اليوم لا لأنه كان شاعراً عظيماً كبيرون أو كيبلنج أو وردسورث ، بل لأنه كان شاعراً غير عادىّ له ملكة تدفعه الى التعبير عن هواجسه وأحزانه فى سهولة ورقة هى أقرب الى فلسفة الجمال منها الى استدرار الدموع أو الشعور بالندم ما ؟

محمد أمين حسونة

وليام وردسورث

العصر الكلاسيكى : يبدأ العصر الكلاسيكى فى الأدب الانجليزى من سنة ١٦٥٠ وينتهى فى سنة ١٧٥٠ بعد أن استمر قرناً كاملا . وقد عُنى فيه شعراؤه بوصف الوقائع الحربية والحوادث التاريخية ولم يعنوا بوصف الطبيعة . ومن بين الشعراء البارزين فى هذا العصر پوب وكامبل وكاوپر ، حتى قيض الله للأدب الانجليزى الشاعر المجيد وردسورث .

وردسورث : شاعر عبقرى نابه الذكر رائع الخيال رقيق النفس صادق الحسّ يأخذ شعره بمجامع القلوب لدقة أسلوبه ورقة معانيه وموسيقيته وتغلغله فى المشاعر الانسانية والطبائع البشرية .

وردسورث وشكسبير وملتن : يرى كثير من الأدباء أنه أمجد الشعراء الانجليز بعد شكسبير وملتن ، ويرى الآخرون أنه فى شعره الفلسفى وحكمته السامية ووجدانه الحىّ لم يسبقه سابق ولم يلحق به لاحق .

مقدرته الفنية : كان وردسورث يحلق فى سماء الخيال ويركن إلى الطبيعه يستلهم منها وحيه والهامه، هذا الى أنه كان شاعر الأطفال والمعمرين والمعوزين والموسرين كما كان نبراساً لهدى المخطئين . اختلط بالجنس البشرى فألمّ بطباعه وغرائزه وميوله ومشاعره وعرف أكثر من غيره من الشعراء حتى بيرون وشيلى الى أى حد أثرت الثورة الفرنسية فى طباع الرجال بمختلف طبقات الهيئة الاجتماعية .

أثره فى الأدب : كان ناثراً كما كان شاعراً وكان شعره ونثره قطعة من نفسه تارة يحدوه الأمل وأخرى يعروه الوجل ، الا أنه فى النصف الثانى من حياته كان يتأثر بنقد الآخرين فينقد ما حبّذ ويحبّذ ما نقد ! وكان لهذا تأثير فى موضوعاته وأفكاره وأساليبه . ومما لا شك فيه أن له من الفضل وحسن الأثر على الأدب الانجليزى والفكر الأمريكى فى خلال القرن العشرين ما لم يكن لأىّ شاعر أنجبه القرن التاسع عشر ، حتى أنجب الأدباء والفلاسفة والساسة وأساطين العلوم والنقاد بروحه السامية ومشاعره الرقيقة وأشعاره المجيدة . واشتعلت الحرب العظمى فكانت ترمى بشرر كالقصر فلم ينس الساسة والمحاربون أن يذكوا فى صدورهم نيران الحماسة باستيعاب قصائده الوطنية ، هذا الى أنه منح الهدوء محبيه ومقدّريه وما عرف الهدوء يوماً ولا ارتاح جسمه . وسيبقى فضله ويحمد اخلاصه ونبله وتعلو مثله العليا ويحيا شعره ما دامت الانسانية والنفوس البشرية .

مميزات شعره : من أخصّ صفات شعره رقة الاسلوب وسلاسته ودقة المعنى وطلاوته ونضوج الفكر وصدق الشعور ورائع الخيال . وكان شعراء العصر الكلاسيكى يعتقدون أن التعمق فى اللغة بأسلوب فخم من مستلزمات الشعر الجيد ، ولكنه خالفهم فى هذا فكان لفظه سلساً وأسلوبه سهلاً لا أثر للتكلف فيه .

رأيه فى الطبيعة : كان مفكراً وكان فيلسوفاً يستلهم الوحى بين أحضان الطبيعة

ومباهجها ، يكشف فى مكنوناتها مستغلق السر ، ويعتقد أن الماديات والمتاعب قضت على سعادة الانسان من جراء انفصاله عن الطبيعة وعدم الركون اليها ، ولديه أن الطبيعة سفر يتعلم منه الانسان ما لم يعلم من بساطة وصفاء نية ورحمة بنى الانسان ورأفة بالحيوان وقوة الايمان بالله خالق الكائنات وموجد الموجودات ، ومن رأيه أن الشاعر رسول السلام ، والشعر إلهام يأتى فى صفاء النفس وصدق الحس ، والطبيعة من صنع الله ، أما المدن وضوضاؤها فمن صنع الانسان ، ويعتقد أن كل كائن حى من انسان وحيوان ونبات يشعر ويحس ، وأن حياة الانسان تتطور الى مراحل ثلاث : فهو فى طفولته يحب الهواء الطلق وفى شبابه يقدر جمال الطبيعة وفى كهولته يفكر فى التأثر الروحى لمباهجها .

أثر البيئة فيه : كان وردسورث الابن الثانى لجون وردسورث المحامى ، وقد وُلد فى ٧ ابريل سنة ١٧٧٠ وأمضى طفولته فى منزل فخم البناء فاخر الأثاث مطلّ على الطبيعة فى أروع مناظرها ، وقد تركت له ولاخوته حرية واسعة فى الاستمتاع بهذه المناظر الخلابة البديعة . وكانت أمه سيدة مهذبة حكيمة عنيت بتدريب غرائزه وتحويلها الى غرائز اجتماعية نافعة ، وكانت شقيقته دوروثى تقاربه فى الطباع والميول والسن والغرام بالشعر . وقد ماتت أمه وهو فى الثامنة من عمره كما لحق بها أبوه وهو فى الثالثة عشرة مخلفاً الأسرة فى حالة مالية تكاد تكون عصيبة . وكان للمناظر البديعة ومباهج الطبيعة من الأثر ما حرّك مشاعر الشاعر سواء اختلفت العوامل الطبيعية أم ائتلفت . وكان للبيئة المدرسية فى صغره أثر حسن إذ كان اخوانه فى العلم يمتازون بدماثة الخلق ورقة العواطف والصراحة والسذاجة . وقد عاشر وردسورث ذوى المتربة واختلط باليتامى ذوى المسغبة فأحبهم وتألم لآلامهم .

رقة إحساسه : تتجلى فى قصيدة عربتها عنه فى هذه القصة إذ يقول : «رأيتُ فى بلاد نائية رحلاً بديناً معافى يبكى فريداً وقد لقيته فى الطريق العام والدموع تبلل خديه ، وقد أظهر الكثير من صدق العزيمة ، لكن كانت تعروه غبرة ترهقه . وكان يحمل بين ذراعيه حملاً فنظر الىّ وتكلف اخفاء ما بقرارة نفسه عنى فلم تحل سترته دون رؤيتى دموعه فتبعته وقلت : «ما خطبك يا صاح ؟ وما الذى أبكاك ؟!» فأجابنى : واخجلتاه يا سيدى ! ما أبكانى غير هذا الحمل فهو آخر قطيعى : فقد كنت صغيراً ثم يافعاً فشاباً فرجلا حنكته التجارب فاشتريت نعاجاً وأغناماً ثم تزوجت وأنجبت وأثريت ، وبارك الله فى مالى وعيالى وأكثرت من شراء الغنم ترعى تلال كوانتوك

ولكن لم يبق من قطيعى الا هذه اولى ستة أطفال أعولهم وقد أصابتهم الفاقة فألحوا علىّ ببيع جزء من غنمى لأكفّ عنهم غوائل الفقر المدقع فكنت أبيع الواحدة إثر الأخرى فكانوا سعداء وكنت شقياً تسيل نفسى حسرات كلما رأيت أغنامى تذوب ذوبان الجليد تحت أشعة ذكاء . وما زلت بالأغنام أبيعها وكأننى أستنزف من نياط قلبي قطرات من الدماء ، فقد كان القطيع عزيزاً علىّ كأولادى ولا زال ينقص من عشر الى خمس الى ثلاث الى واحدة هى التى أحملها بين ذراعى فهى آخر قطيعى!»

رائع خياله : وآية ذلك ما كتب مناجياً النوم إذ يقول : «رقدت ليلة متوسداً السهاد فتخيلت فى عقلى الباطن منظر الأغنام سائرة فرادى سيراً وئيداً وصوت الأمطار المتهاطلة من ميازيب السماء وطنين النحل وخرير ماء البحار وعصف الرياح. ورأيت الحقول المريعة وصفحة الماء وصفاء السماء وسمعت تغريد الأطيار على منابر الأشجار. وقد سهدت الليلة المنصرمة وليلتين أخريين فكأن بين جفنى وبينك أيها النوم حرب عوان . فلا تحرمنى الليلة اغفاءة الفجر أيها النوم الفاصل بين اليوم واليوم ، فما أنت الا أمّ حنون وموئل الأفكار الحلوة والصحة التامة» .

حياته المدرسية وأثر الثورة الفرنسية : تخرج فى جامعة كامبردج سنة ١٧٩١ إذ بلغت الثورة الفرنسية أشدّها فامتلأ حماسة وحمية وطنية ونزح الى فرنسا فسحره الفرنسيون بعاداتهم وحسن ذوقهم وذكائهم ولغتهم وانخرط فى سلك طائفة الجيرونديين ونجا من المقصلة التى كانت نصيب الكثيرين من أصدقائه وكان لآراء جان جاك روسو وشوسر وشعراء عهد الملكة اليزابث والأدب الايطالى والثورة الفرنسية أثر كبير فى شعره .

أهم مؤلفاته : عاد وردسورث الى انجلترة سنة ١٧٩٢ وفى سنة ١٧٩٣ نشر «رحلة الى سويسرة» ، وبعد أن مكث بجنوب انجلترة ثم بغربها فترة من الزمن اتخذ مسكنه فى اقليم البحيرات وهناك كتب معظم شعره وأصدر أكثر مؤلفاته. وفى سنة ١٨٠٠ نشر «الاغانى الوجدانية» فى مجلدين وهى فتح مبين فى ميدان الأدب الانجليزى من درر القصائد مثل «البلبل» و «الصياد العجوز» و «نحن سبعة» و «أبيات فى الربيع الباكى» و «الشوكة» و «آخر القطيع» و «المسلفر» وغيرها كثير . وفى سنة ١٨٠٢ دفع الايرل لونسديل ديناً لأسرة وردسورث مبلغا قدره ٨ آلاف جنيه وتزوّج الشاعر من مارى هتشنسون ، وفى هذه السنة ألف كثيراً من

الشعر الرصين . وفى سنة ١٨٠٣ أصدر « أغنية عند حصن » و « اعلان الخلود » و « نشيد الواجب » و « أخلاق المحارب » و « المقدمة » و « سلطان الموسيقى » و « سفر قصير » وهذا قليل من كثير .

آلامه : بين سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٣٧ عانى وردسورث ملمات فادحة ومصائب جمة قابلها بصدر رحب وعزيمة دونها همة الشباب على الرغم من شيخوخته، فقد مات صديقه ولتر سكوت سنة ١٨٣٢ وتبعه أوفى أصدقائه الشاعر كولردج فى سنة ١٨٣٤ ثم شارلس لام فى السنة نفسها وتهدمت قوى أخته دوروثى العقلية وماتت ابنته المحبوبة دورا فمزق موتها نياط قلبه وغرق الى الاذقان فى بحر من الاحزان .

أكاليل الغار : قام بسياحة طويلة الى فرنسا فايطاليا فالنمسا فالمانيا . وفى سنة ١٨٣٩ نال درجة شرف من جامعة اكسفورد . وتلتها سنوات عشر بلغ فيها الشاعر أسنى ماتصبو له نفس كل شاعر على وجه البسيطة فقد كانت أمم الغرب — كأمة العرب — ولا زالت تقدس شعراءها وتمجد أدباءها فمنحته الحكومة الانجليزية لقب « أمجد شاعر » وأعطته تبعاً لذلك معاشاً سنوياً قدره ثلثمائة جنيه وهو مبلغ ضخم بالنسبة لزمنه ما كان يتقاضاه فى عهده أكبر موظف بالحكومة .

مناجاة القبرة : هى من أروع قصائده إذ يقول ما عربته عنه حرفاً بحرف :

أيها الطائر السماوى الذى يغنى فى الهواء ويحوم حول السماء ! أتزدرى الأرض وما حوت من شقاء ، وما اتصفت به من صنوف العناء ، أم أن فؤادك وعينيك — وقد رفعك جناحاك — تحن الى وكرك على الأرض المغطاة بالندى ذلك العش الهادىء الذى يتسنى لك النزول اليه وقتما تريد بجناحيك الساكنين وموسيقاك الصامتة ؟

اصعد أيها المغنى الجرىء الى مدى البصر أو أعلى ! فان الموسيقى العازفة بنغمات الحب المتأجج بين جوانحك لصغارك — ذلك الرباط المقدس الذى لا تنفصم عروته ولا تنضب شرعته — تبعث سروراً لسكان الأرض لا يقل عن سرورك ! ومما تغبط عليه انك تستطيع أن تغنى سواء أكان ذلك فى فصل الربيع بأوراقه الخضراء أم فى غيره . تلك هى قوتك التى منحك الله اياها . دع البلبل يعيش فى الغابة المظلمة بوارف الظلال واسكن أنت فى حقل من النور خاص بك ، ومنه تصبُّ على سكان الأرض شآبيب الموسيقى العذبة المملوءة بالقوة التى أعطاكها الله وحرمها البلبل . أنت كالرجال الحكماء سواء بسواء تتأجج فيك الرغبة فى البحث عن الحرية المطلقة ، وفى بحثك

عن الحرية للتفيؤ تحت ظلالها تطيع أوامر الله جلّ شأنه : فقد قضت ارادته ـ ولا راد لقضائه ـ أن ينعم كل مخلوق بنعمة الحرية ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وردسورث وبيرون وشيلى : كان وردسورث رسول السلام كما كان بطل الحرية متأثراً فى ذلك كما تأثر بيرون بمبادىء الثورة الفرنسية وكان كلاهما يقدس الحرية والأخاء والمساواة ويدافع عن الحرية الشخصية ، وكان شيلى متأثراً بنظريات الثورة الفرنسية أكثر منهما. وبينما كان بيرون يكره التقاليد والانظمة فى عهده نتيجة لما لقى من معاملة سيئة وتبعاً لطبيعته الثائرة كان شيلى يعتقد أن الناس خيرون بطبيعتهم وما أفسدتهم سوى الأنظمة التى تحكمت فيها الجماعة ورجال الكنيسة كما كان اشتراكياً نظرياً وعملياً . وكان كل من هؤلاء الشعراء الثلاثة جواداً كريماً وبالفقراء رحيماً . وقد اتفقت آراء وردسورث وشيلى فى نقطتين هامتين : أولاهما أن الجماعة تبلغ درجة الكمال اذا كمل كل فرد منها، وثانيتهما ان الطبيعة أم حنون ترقق مشاعر الرجل ، وتتجلى شخصية كل من هذين الشاعرين فى قصيدته (مناجاة القنبرة) . وقد ألممنا بقصيدة وردسورث، وأرى لزاماً أن ألخص قصيدة شيلى لنوازن بين الشاعرين : فهو يشبه طيران القبرة من الأرض وقت الأصيل بملاك صاعد الى السماء ونجم متألق تخفى ضياءه أشعة ذكاء والقمر المنير يحجبه السحاب، وأغنيتها بتألق نقط الماء فى قوس قزح. فهى فى جمالها كشاعر غائب عن الوجود محلق فى سماء الخيال أو غادة هيفاء تغنى فى حجرتها أغنية الحب أو شذى الورود فى أكمامها ورنات المثانى وقطرات الربيع. ويشبه السرور المنبعث من أغانى القبرة بما هو أروع من الزغاريد وهتافات الاجلال وأكاليل الغار . ويقدر سرور بنى الانسان وإن عظم بقطرة من غيث سرور القبرة وتحنانها لصغارها . ويعتقد أن الشاعر لو فرح فرحاً خالياً من الشوائب كما تطرب القبرة اذن لأسمع الناس شعراً رائعاً لم يسمعوه من قبل . هذه قصيدة شيلى فى مناجاة القبرة ومنها نرى كثيراً من أوجه الشبه بينها وبين مثيلتها ، فمن ذلك :

(١) الرغبة فى الحرية : ففى قصيدتى الشاعرين يبحث كلاهما عن أصل السعادة فى صفاء سماء بعيداً عن أرض الشقاء إذ يقول وردسورث: «أتزدرى سكان الأرض الذين تحيط بهم المتاعب والشواغل إحاطة السوار بالمعصم » بينما يتساءل شيلى عن موئل السعادة والسرور فى الحقول أو خرير الامواج أو الوهاد أو النجاد .

(٢) حب الوحدة : إذ يقول وردسورث : «دع للبلبل غابته المظلمة واسكن انت وحدك فى جوّ النور تصب منه على سكان الأرض غيث السعادة» بينما يقول شيلى : «ان الأرض وموجات الهواء تردد صوتك وانت فى وحدتك كما يضيء القمر بلألائه فى السماء الصافية فى سكون الليل» .

(٣) روح الاستقلال : إذ يقول وردسورث «انك تغنى مستقلا عن الربيع» بينما يقول شيلى «ان القبرة مستقلة فى عملها» .

(٤) المثل العليا : يرى وردسورث القبرة مثلاً أعلى يحتذيه الحكيم فى الطموح وبلوغ أسباب المجد محافظاً على لغته وقوميته وأسرته متبعاً القوانين الالهية والوضعية، ويراها شيلى قدوة لبنى الانسان فى التمتع بالحرية التى لا حدّ لها واشعال ثورة تحطم كل القيود .

شعره الوصفى : من أروع قصائده ما وصف به النرجس المأتى فى قصيدة عربتها عنه فيما يلى :

تجوّلتُ يوما فريداً كما تسير السحائبُ فوق الجبالْ
وما كدتُ أنظر حتى رأيت بقرب البحيرة بين التلالْ
وتحت الشجيرات فوق المياه أزاهرَ فاقت حدود الجمالْ
رأيت الأزاهر فوق أديم المياه ، وأجملُ بماء زلالْ
رأيت الأزاهر تهتز حين هبوب النسيم بصفو الليالْ
رأيت الألوف من الزهر تهتز صوب اليمين وصوب الشمالْ
رأيت صفوف الأزاهر عند خليج تميل بأحلى دلالْ
وترقص حيناً وتهتزُّ حيناً صفوفاً صفوفاً ، ولا من كلالْ
تحاكى النجوم المضيئة فوق المجرة أو هى بمثل الهلالْ
سررت لرؤية نرجس ماء بديع الجمال خفيف الظلالْ
وانى عند اضطجاعى وعند اجتيالى وحيداً ، وأىّ اجتيالْ
وحين اشتعالى بفكر عميق وحين علوّى بأوج الجبالْ

وعند خلوّى من الفكر حيناً من الدهر، لا همّ عندى ببالْ
يجول بذهنىَ منظر هذى الأزاهرُ حيناً كسحرٍ حلالْ
فيرقص قلبى سروراً كما تهزّ الأزاهر ريح الشمالْ

شعر الوجدان : من أجود ما كتبه قصيدته فى « الربيع الباكر » إذ يقول :

« جلست مضطجعاً متفيئاً ظلال الأشجار الوارفة فسمعت أصوات الطيور الموسيقية فتواردت فى مخيلتى الأفكار السارة مؤتلفة معها الذكريات المحزنة ، وأحزننى أن أفكر فيما جلبت المدنية لبنى الانسان من شرور ومتاعب . وفى ذلك المكان الظليل فى الغابة زحفت الأزهار المتسلقة على زهور الربيع الباكرة، وانى موقن أن كل زهرة يجب أن تتمتع بالنور والهواء ، فهى تحسّ وتتألم كما يتألم الحرُّ اذا ارتقى اللئيم على أكتافه ، ورأيت الطيور حولى تلعب وتصدح بنغمات السرور . لقد امتدت أكمام الازهار تستنشق النسيم العليل . ان الطبيعة مقدسة وهى من صنع الله ، وأما المدنية والمخترعات الحديثة فمن صنع الانسان ، وكم فيها من مساوىء!» .

شعره القصصى : من شعره الرصين ما عرّبته عنه فى هذه الأبيات :

ليس عندى لكم سوى أمنيَّهْ ذكر تاريخ سؤدد (البندقيهْ)
ملكت قوة وملكاً وطيداً وعلت رفعةً بنفس أبيهْ
نالت العزَّ والفخارَ وكانت ذات حسن بما تجلت غنيهْ
كانت الذخر للتجارة والعلم وزادتْ أرباحها الماليهْ
نالت المجد والهناء وحازت كلَّ فخر بروحها الحربيهْ
وسمت سؤدداً وعاشت طويلا فى رخاءٍ بنعمة الحريهْ
وتجلت بسلطةٍ وتحلتْ بإباء وعزة وطنيـــــهْ
كانت الفخر للمدائن نوراً موئلا للرقىّ والمدنيهْ
كانت الحرةَ الحصان فلم تخضع أىَّ وقتٍ لدولة أجنبيهْ
كانت الدرة اليتيمة فى البحر فكانت بقوةٍ معنويهْ
بقيت مدةً عروساً فلما لقيت زوجَها تبدتْ وفيهْ

هى لم تنتخب سوى البحر زوجاً إذ رأت زوجها نقيّ الطويهْ
وعروس الأدرات لم تك ترضى باسارٍ وذلةٍ وشكيهْ
غير أن الزمان إن يصف يوماً فهو ينهى صفاءه برزيهْ
فقدت مجدها العروس وذلت وذوى حسنها ولاقت بليهْ
ليت شعرى أنحن لا نشتكى الهمّ ؟ ألسنا من أنفس بشريّهْ ؟
إنما نحن قد خلقنا رجالا وخليق بنا رثاء الضحيهْ
نحن قوم نبكى على الطلل البالى ونرثى العلاء والبعقريهْ
عزّها دارس وكانت فخاراً لا نرى الآن سؤدد البندقيهْ

رثاؤه : قال فى قصيدته (الطبيعة والشاعر) ما عربته عنه فيما يلى :

«قديماً كنت بجوارك أيها البناء المتهدم الذى عفت آثاره فقد سكنت قريباً منك فى أحد شهور الصيف وكثيراً ما رأيت ظلك منعكساً على صفحة المياه الصافية صفاء المرآة حيث السماء مصحية والهواء ساكن والأيام غرة فى جبين الدهر، فاذا رأيت ثم رأيت صورتك منعكسة فى الماء مرتعشة ولكنها باقية ثابتة . كم كان الهدوء شاملا لا يتغير بتغير الفصول ، وكم تخيلت المحيط الصاخب أرق الأشياء وأجملها .

كم كنت أود أن أكون المصور الذى صورك لأعبر عما رأيت فيك وأضيف اليه تخيلى النورانى الذى لا يوجد فى البحر أو الأرض ذلك التخيل الساحر حلم الشاعر . كم وددت لو شيدتك أيها البناء القديم فى وسط دنيا مختلفة عن هذه الدنيا الدنية بجوار بحر دائم الابتسام وعلى أرض هادئة تحت سماء نقية صافية . كم وددت أن أصورك صورة تجلب الأفراح وتذبح الأتراح . لاحركة فيك إلا المدّ ومداعبة النسيم وأزاهر الطبيعة . هذه الصورة فى مخيلتى كنت أرجو أن أرسمها لأرى الأمن الشامل واليمن الذى لا تشوبه شائبة . والآن عفت صورتك فقد شعرت شعوراً آخر إذ ينتابنى الضيق والحزن ، وكلما ذكرتك تجددت أحزانى .

بومونت أخى وحبيبى ! انى أرثيك وألوم ذلك البحر الصاخب والشاطىء المظلم والسفينة القديمة فى الأمواج المخيفة تحت السماء الغاضبة . أمّا

ذلك القصر الضخم المرتفع فاني أحب أن أرى منظره مرتديا درعه القوىّ فى الزمن المنصرم حيث الرعد والبرق والعاصفة والأمواج الصاخبة !

وداعاً أيها القلب المنفرد الذى عاش كحلم بعيداً عن سعادة البشر ! ومرحباً بالقوة فى وحدتى وبالصبر الجميل وبالنهزالتى تتيح لى رؤية ما نتجشم ونتحمل. وانى أتلقى الذكريات السيئة الماثلة أمامى بصدر رحب وإن كنت أتألم لفرق حبيبي وأخى».

وفاته : فى ظهر الثلاثاء ٢٣ من أبريل سنة ١٨٥٠ وافاه القدر المحتوم فكانت حياة الشاعر فى موته : فقد سار صيته فى حياته بطيئاً وملأت شهرته الآفاق بعد موته سريعاً ؟

منولى نجيب

أغنية للخريف

أين سنذهب فرحين للبحث عن أكاليل الأزهار
عند انتهاء العام ،
عند ما تصبح الضفاف الجافة صفراء حزينة ،
عند ما تصير الأغصان صفراء ؟
أين الأكاليل القديمة التى كانت لنا يوماً من الأيام
ومتى ستكون الجديدة فى متناول أيدينا ؟
ماذا سنصنع من أجل أكاليل الأزهار